القدس كمدينة عثمانية

عصام نصار*

دخلت القدس العصر الحديث وهي جزء من السلطنة العثمانية. وعلى الرغم من أهميتها الدينية فإن المدينة لم تحتل مكانة مهمة في السياسات العثمانية، حتى بداية القرن التاسع عشر على الأقل، حيث قامت الإدارة العثمانية بدمج القدس مع إيالة (ولاحقا ولاية) الشام، خلال الجزء الأكبر من حكمها.

وعلى الرغم من أن تطوير ولاية الشام لم يحتل مكانة عالية على سلم أولويات الحكام العثمانيين، إلا أن القدس لقيت اهتماماً خاصاً من قبل السلطات خلال القرن السادس عشر. وكان عدد سكان القدس في ذلك الوقت وفقاً لإحصاءات عام ١٥٥٣ حوالي ستة عشر ألف فرد، غالبيتهم مسلمون عرب، وقلة من المسلمين غير العرب، وأقليتان كبيرتان هما: المسيحيون واليهود. كان غالبية المسيحيين من الروم الأورثوذوكس العرب الذين يتكلمون اللغة العربية، ولكن كان هناك أعداد قليلة من الأرمن، والأقباط، والحبشيين، والصرب، واليونانيين، والسريان. وكان غالبية اليهود من السفارديم، أي اليهود الشرقيين الذين تعود جذورهم إلى الأندلس عندما حكمها المسلمون، كما كان هناك يهود مقدسيون يتكلمون العربية كلغتهم الأم في المدينة. وكانت التركية العثمانية اللغة الحكومية في إدارة الدولة، وكانت العربية اللغة المشتركة بين المناطق العربية كافة.

كانت القدس على الرغم من عدد سكانها المتواضع، مدينة مركزية يؤمها سكان عدد كبير من القرى المجاورة. وكانت أسواقها مثل سوق اللحوم (سوق اللحامين كما يسمى في القدس) والتوابل (او سوق العطارين) وما تنتجه المدينة من صابون وزيت الزيتون تكفي لسد الاحتياجات المحلية. كما كان في المدينة عدد كبير من الطوائف الحرفية (النقابات المهنية) مثل طائفة الخبازين أو اللحامين أو الصاغة وغيرهم – كان عدد الطوائف في القرن السادس عشر بحسب السجل العثماني ستة وأربعين – وهو ما يشكل دليلا على نشاط اقتصادي فاعل.

وكانت المدينة تصدّر الصابون والحبوب لمصر، وكانت تستورد القماش منها. ومع تراجع هيبة الدولة العثمانية وقوتها، بدأت القدس تفقد وضعها الخاص، حيث أن بعد المدينة عن مركز صنع القرار في الإمبراطورية وضعف دورها الاقتصادي على المستوى العثماني، أدى إلى تراجع مستوى المعيشة فيها. ولكن وضع القدس الاقتصادي بقي متذبذباً إذا ما قورن مع وضع المدن والبلدات المجاورة. وقد وصف المدينة زائر من الأناضول اسمه إيليا شلبي، وقد وصل إلى القدس في القرن السابع عشر، أنها مزدهرة تتبع لها إداريا ألف وستمائة قرية مجاورة تقريباً. وبالمثل فإن الرواية التي

* عصام نصار: استاذ مشارك في جامعة ولاية الينوي وزميل بحث في مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

قدمها الراهب الأرمني زفار جيارجي الذي وصل القدس قادماً من أسطنبول عام ١٧٢١ تبين أن النمو الاقتصادي للمدينة لم يخفت في القرن الثامن عشر. وقد كتب هذا الأخير في وصف المنظر خارج كنيسة القيامة:

> عند خروجك من الباب الضيق والازدحام ترى إلى يسارك متجر قماش يعود لرجل يوناني يدعى حنا. وبجانب ذلك المتجر ترى بيت الشيخ مصطفى، ومن ثم صالون حلاقة، ومن ثم ترى متجر حلويات. بعد ذلك ترى حانوتاً يبيع أحذية، وفي الأسفل كان هناك صائغ تنتظر لديه النساء دون كلل أبدا.

ويمضي زفار في وصفه لقائمة الحوانيت التي رآها في المدينة، حيث يقول أنه رأى كذلك «حوانيت الأواني الزجاجية، ومحلات صانعي الأقفال، والمزينين، والمقاهي».[1]

ومع بداية القرن التاسع عشر انكمش عدد سكان القدس إلى ثمانية آلاف شخص، وهذا يشير إلى تراجع في جوانب الحياة اليومية في القدس وربما في عموم مدن السلطنة. ولكن خلال العقود اللاحقة من القرن التاسع عشر حدثت تحولات جذرية في القدس، حيث توسعت خارج أسوار المدينة القديمة، وشهدت نمواً كبيراً في عدد السكان، ونمواً اقتصادياً كذلك. كما أن سلطات الحكم في المدينة– مع بروزها كعاصمة إدارية لمتصرفية مستقلة– تمكنت من إضعاف قدرة قطاع الطرق على الهجوم على المسافرين وهذا ما جعل من السفر من وإلى المدينة أكثر أماناً من أي وقت مضى.

جاءت هذه التغيرات نتيجة لتضافر عدد من العوامل، أهمها الطبيعة المتغيرة للإدارة العثمانية ذاتها. ومع دخول القدس قرنها الرابع تحت الحكم العثماني، فإن العديد من المحاولات الفاشلة من قبل قوى أوروبية لإيجاد موطئ قدم لها في المدينة بدأت بترك بصماتها على المدينة. وفي عام ١٨٢٦ قاد أشراف القدس ثورة تم قمعها من قبل السلطات في دمشق واسطنبول، وفي عام ١٨٣١ وقعت فلسطين وسوريا تحت سيطرة محمد علي باشا والي مصر. تم خلال هذه الفترة إدخال تغييرات عديدة ومهمة على إدارة القدس. كما قام الحكم المصري في سوريا بتطبيق عدد من الإصلاحات تشبه تلك المطبقة في مصر نفسها، حيث تم إدخال تغييرات متعلقة بإقامة وملكية غير العثمانيين. وتم السماح للإرساليات الأوروبية والتمثيل الديبلوماسي بالتواجد في فلسطين. كما فتحت بريطانيا أول قنصلية لها عام ١٨٣٨، وتبعتها في ذلك غالبية الدول الأوروبية. في عام ١٨٤٠ أجبرت الإدارة المصرية على الرحيل، فوقعت القدس– بصفتها جزءا من سوريا– مجدداً تحت حكم الدولة العثمانية. ولكن تم تطبيق سياسات الإصلاح التي استحدثت عام ١٨٣٩. وقد طورت الحكومة العثمانية الوضع الإداري للقدس لتصبح سنجقا ومن ثم متصرفية في عام ١٨٧٤– أي منطقة تمتعت بشبه حكم ذاتي في نطاق الإمبراطورية.

وقد تجلى التغيير في وضع القدس في مزيد من التوسع ومزيد من الهيبة. ومما يدل على ذلك أن القدس أصبحت المدينة الثانية في السلطنة، بعد أسطنبول، لتؤسس مجلسا بلديا. ترافق

1 George Hintlian, «Mapping a Pilgrimage» in Issam Nassar and Salim Tamari, eds, Pilgrims, Lepers and Stuffed Cabbage; Essays on Jerusalem's Cultural History (Jerusalem: Intitute of Jerusalem Studies, 2005), 28.

إنشاء البلدية مع إنشاء المحاكم، وفي عام ١٨٧٧ أرسلت المدينة ممثلين إثنين للبرلمان العثماني (مجلس المبعوثان) في اسطنبول والذي لم يكتب له أن يعيش طويلاً. وكان الممثلان هما: يوسف ضياء الخالدي وسعيد الحسيني.

وصل عدد سكان القدس مع نهاية القرن التاسع عشر لأكثر من خمسين ألف شخص (تستند هذه المعلومة إلى الإحصاءات التي يوردها شولش).[2] كان هذا النمو جزءاً من نمو عام في سكان فلسطين، وقد شمل السكان غير المسلمين في المدينة. ومع هذا النمو تزايدت المؤسسات الدينية المسيحية واليهودية في المدينة، حيث تم في النصف الأول من القرن إنشاء أسقفية أنجليكانية (كانت في البداية أنجلو بروسية). وفي عام ١٨٤٢، بدأت الإرساليات البروتستانتية ببناء كنيسة المسيح مقابل القلعة. وبعد ذلك بفترة وجيزة بدأت أعمال البناء في كنيسة الجَلْد في الموقع التقليدي لمحكمة المسيح عند ما يعرف بالمرحلة الثانية في طريق الآلام في حي باب الواد القريب من المسجد الأقصى في المدينة. ومع تنامي تأثير الإمبراطورية الروسية، تم إنشاء الكنيسة الروسية الأورثوذوكسية ونزل الهوسبيس النمساوي للحجاج. وفي عام ١٨٩٨ أنشأ اللوثريون الألمان كنيسة المخلّص في سوق الدباغة قرب كنيسة القيامة، وقد قدم إمبراطور ألمانيا فلهلم الثاني إلى القدس خصيصاً في هذه المناسبة. كما وبدأ اليهود الإشكناز بالوصول للمدينة ابتداءً من ثلاثينيات القرن التاسع عشر، حيث أنشأوا عدداً من الكنس الخاصة بهم.

شهد القرن التاسع عشر وصول أفواج من السياح والحجاج، وكانت وكالات السفر– مثل وكالة ثوماس كوك– جاهزة لاستضافة السياح وتنظيم جولات لهم. كما كان المترجمون المحليون متوفرين، وأمكن إيجادهم بيسر. كما أن حالة استتباب الأمن المتزايدة جعلت من فلسطين أكثر أمناً من أي وقت مضى. وقد أصبح التنقل أكثر يسرا مع تدشين خط سكة الحديد بين القدس ويافا في نهاية القرن، ومع دخول العقد الأخير من القرن التاسع عشر، أصبح في المدينة فرع للبنك العثماني.

تجلى الأمن المتزايد في المدينة وازدياد عدد السكان والسياح في شكل تنمية اقتصادية، وارتفاع في الأسعار، وظهور حرف ومصالح تجارية جديدة. كانت صناعة الخزف، والنحاس المزخرف، والتحف الملونة بعض المنتجات المتوفرة في السوق السياحي. كما ازدهرت صناعة الطباعة خلال تلك الفترة. وشهدت الفترة ذاتها صدور أدلة سياحية ودينية، حيث برزت مطبعة الفرنسيسكان في هذا المجال. في مطلع الستينيات من القرن التاسع عشر تم افتتاح مشغل لتعليم التصوير داخل مجمع كنيسة القديس يعقوب الأرمنية الواقعة في الجزء الجنوبي الغربي من البلدة القديمة – كما ذكر آنفاً. ومع منتصف الثمانينيات من القرن التاسع عشر، أصبح في المدينة أول مشغل تصوير فوتوغرافي محلي أسسه المصور غرابيد كريكوريان، تلاه إنشاء عدد من الاستوديوهات المتنافسة في منطقة باب الخليل. وقد شهدت منطقة باب الخليل ارتفاعاً في عدد الحوانيت داخل وخارج السور، حيث تم بناؤها من قبل بطريركية الروم الأورثوذكس، ومقاولين فلسطينيين مقدسيين.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر أدى النمو السكاني المضطرد في المدينة إلى التوسع خارج الأسوار، حيث تم بناء أحياء جديدة غرب المدينة وجنوبها وشمالها. وكانت الجالية اليهودية

2 See *Alexander Scholch, Palestine in Transformation 1856-1882 studies in social, economic, and political development, translated by William C. Young, Michael C. Gerrity (Washington, D.C: Institute for Palestine Studies, 1993).*

أول من انتقل لخارج الأسوار. فقد تم بناء منطقتين جديدتين غرب وشمال المدينة بتبرع أثرياء أوروبيين يهود مثل السير موسى مونتييفوري أو البارون إدموند دي روتشلد. أما المنطقتان فهما: ميئا شعاريم ويمين موشيه. كما بدأ المسيحيون العرب واليونان والأرمن بالبناء خارج المدينة القديمة، وبنوا أحياء جديدة مثل حي الطالبية وحي البقعة. كما بنى وجهاء مسلمون، من أمثال أبناء عائلتي الحسيني والنشاشيبي، خارج الأسوار أحياء مثل حي الشيخ جراح شمال المدينة. وهاجر الهيكليون الألمان، وهم جماعة مسيحية ألفية، وبنوا حياً خاصاً بهم غرب المدينة، ويعرف اليوم باسم الجيرمان كولوني أو كولونية الألمان.[3] وكانت التركيبة الدينية للأحياء الجديدة مختلطة من حيث الدين والطائفة، ما عدا المناطق اليهودية التي تم بناؤها حديثاً. كما شهدت الفترة الممتدة بين١٨٥٠ و١٨٦٠ إنشاء عدد من البنايات خارج السور مثل المدرسة البروتستانتية على جبل صهيون، والمجمع الروسي المعروف بالمسكوبية، ومدرسة شنلر للأيتام.

ومع بداية القرن العشرين كانت القدس من أكثر المدن سكاناً في فلسطين، حيث سكنها أكثر من ستين ألف شخص عشية الحرب العالمية الأولى منخرطين في جوانب الحياة اليومية كمواطنين عثمانيين على صلة ببقية البلاد العثمانية. فبعيد إعلان نجاح الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ احتفلت القدس بصورة واضحة. فمن أوراق حاكم المدينة العثماني عشية الانقلاب، علي أكرم بك، نشعر بإحباطه نتيجة ترحيب سكان المدينة بالحدث. لكن وصف حال المدينة بعد الانقلاب يظهر بوضوح أكبر وبالتفصيل في مذكرات الموسيقي واصف جوهرية–والذي كتب مذكراته حول الفترة الممتدة من ١٩٠٤ وحتى أعوام الستينيات– حيث كتب بان «الزينات والاحتفالات وليالي السمر» أقيمت «في جميع أنحاء البلاد بصورة يعجز القلم عن وصفها»، وبرغم «عجز القلم» المزعوم فهو يصفها (!) لنا بالطريقة التالية:

> كانت مدينة القدس شعلة من الأنوار فلم يبق منزل ولا عمارة ولا معهد ولا دكان ولا شارع إلا منارا بالشموع (ولم يكن كهرباء في المدينة بعد) وبفوانيس صغيرة داخل كل فانوس شمعة والأعلام والزهور وأغصان الشجر تزين المدينة لمدة أسابيع أسابيع والشعب بهرج ومرج وفرح وسرور وابتهاج. [. . .] وكانت فرقة الموسيقى التابعة للجيش ترفه عن الشعب يوميا تسير في شوارع المدينة وبعد الظهر تكون في المنتزه [منتزه المنشية خارج السور الشمالي الغربي] لبعد الغروب.[4]

ومع اقتراب نهاية العقد الأول من القرن العشرين كان الناس في القدس يشعرون بتقدم العصر التقني الجديد، وخصوصاً مع وصول البترول والكهرباء. يصف لنا واصف جوهرية دخول الكهرباء للمدينة ورؤيته لنور الكهرباء للمرة الأولى كما يلى:

---

3 روشيل ديفيس، «القدس العثمانية: نمو المدينة خارج الاسوار» في سليم تماري، محرر، القدس ١٩٤٨ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٢)، ٢٨–٣٣.

4 واصف جوهرية، القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية، تحرير سليم تماري وعصام نصار (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية)، ١٠٧.

أول من احضر الكهرباء إلى القدس عمارة النوتردام دي فرانس [. . .] كنا نمر على هذا البناء ونشاهد إنارة الكهرباء من المدخل الرئيسي ومن شبابيك العمارة. ولحسن الحظ ولأول مرة كنت مع توفيق ووالدي عندما كان سهرانا مع حسين أفندي [الحسيني، رئيس بلدية القدس]، [وفي طريق العودة مشيت أنا وأخي توفيق إلى جانب الوالد الذي كان يمتطي حماره الأبيض، ومررنا بالنوتردام]. وكان على ما يظهر يعرف البواب فوقف وطلب من البواب (وكان مقطوع اليد) أن يطلعنا على كيفية إنارة هذه الكهرباء، فدخلنا معه إلى أول الإيوان وأدار زرا على الحائط إذ طفأ نور الكهرباء [. . .] وتعجبنا جدا من مشاهدة هذه العملية، وقلنا أنه الحق يقال لأعظم من اللوكس، وخرجنا وبقينا مدة طويلة ونحن نقص ما شاهدناه للأصدقاء وللوالدة وللأخوان فيدهشون. وهكذا شكرنا الباري لإطلاعنا على الكهرباء لأول مرة، وطبعا بالتدريج انتشر هذا الاختراع في كثير من العمارات الفخمة.[5]

ويتحدث جوهرية عن وصول أول سيارة للمدينة، حيث كان الناس عام ١٩١٢ يطلقون عليها اسم «العربة بلا حصان». وكانت تلك السيارة تعود لأصدقاء السيد فيستر، وهو من مجموعة التبشيريين المسماة بالكولونية الأميركانية في القدس. وكما هو الحال في كثير من الأماكن، فقد كان وصول السيارات للمدينة سبباً في تحولات في المدينة، حيث تم تسهيل الشوارع، وتوسيعها. أضف إلى ذلك أن السيارة قربت المسافات، فأصبحت المسافة التي كان ينظر لها على أنها طويلة قبل عدة سنوات أقصر بكثير بفعل السيارة. ونرى التغيرات الجذرية التي طرأت على أساليب المواصلات هذه في نص الجوهرية، إذا ما قارنا وصفه لكيفية تنقل والده في بداية القرن، حين يقول لقرائه أن والده جريس كان يركب حماراً للذهاب للعمل مع وصفه لكيف دخلت السيارة للقدس، وسرعان ما أصبحت وسيلة النقل الرئيسة. مجمل الصورة التي تقدمها المذكرات الجوهرية عن الحياة اليومية في القدس تشكل وثيقة قيمة، حسب وصف سليم تماري، «عن الحياة الفلسطينية المدينية . . . ومصدرا أوليا من الدرجة الأولى بالنسبة للمؤرخ الاجتماعي والباحث الاثنوغرافي.»[6]

ومن خلال الصور المتوفرة لنا والتي تم التقاطها للمدينة منذ العقد الأول من القرن، يمكن أن نلاحظ بسهولة التحول الذي طرأ على الميدان الواقع خارج باب الخليل، حيث تحول هذا الميدان من مصف لعربات الخيول إلى موقف حافلات. وبالمثل فإن الصور التي التقطت إبان الحرب العالمية الأولى تظهر كيف أن الشوارع داخل البلدة القديمة كانت ترصف باستخدام مداحل يدوية. وفي عام ١٩١٤، انتظر أهل المدينة بفارغ الصبر هبوط أول طائرة في المدينة. مرة أخرى نجد وصف هذا الحدث لدى واصف جوهرية، وكذلك في يوميات المربي خليل السكاكيني. يصف الجوهرية ذلك اليوم كالآتي:

5 واصف جوهرية، القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية، تحرير سليم تماري وعصام نصار (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية)، ١٦٩.

6 سليم تماري، مقدمة كتاب واصف جوهرية، القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية، تحرير سليم تماري وعصام نصار (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية)،

أذكر أنه في فصل الصيف سنة ١٩١٤ وبعد دخول الدولة العثمانية في الحرب انتشرت الأوامر الرسمية من قبل الحكومة أن طائرة ستهبط في القدس . . . وذلك بجوار الكازاخانة في البقعة الفوقا طريق بيت لحم محلة تلبيوت في وقتنا الحاضر. ... وقد هرعت الحكومة والجيش والشعب كافة من باكر اليوم المحدد على ما[7] أذكر... ولما كان والدي حيا فقد ركب حماره وذهب ليرى الطائرة وذهبنا معه.

كما وصف المربي والمفكر خليل السكاكيني اليوم ذاته كالآتي:

... أفطرت وذهبت إلى البقعة، فكان الناس يتوافدون إلى المحل المعد لنزول الطيارة، حيث ضربت الخيام ورفعت الأعلام واصطفت تلامذة المدارس الوطنية، واجتمع جمهور كبير من الناس لا يقل عن عشرات الألوف. وكان الطقس جميلا جدا، وكلهم أنظار شاخصة إلى الأفق الشمالي من حيث قدروا مجيء الطيارة.

ولكنٍ لسوء الحظ لم تصل الطائرة في ذلك اليوم، لأنها سقطت في سماء سمخ شمال فلسطين. ووفقاً لجوهرية فإن طائرة أخرى وصلت بعد وقت قصير إلى المنطقة ذاتها.

وكانت إرهاصات دخول زمن الحداثة بادية في المدينة. ومع انتشار استوديوهات التصوير الفوتوغرافي، ودور الطباعة والنشر، والمكتبات، والمستشفيات، ومدارس ذات طابع جديد، وخدمات البريد في المدينة، أصبحت القدس تتمتع بمرافق حديثة. ونرى من خلال الصور المتوفرة، والتي تم التقاطها في تلك الفترة، برج ساعة في أعلى سور البلدة القديمة فوق باب الخليل. ويشير وجود البرج، الذي دشن بمناسبة الذكرى اليوبيلية للسلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٦، إلى دخول فكرة الوقت المحدد–standard time–وبدء العمل بزمن منتظم، وهذه علامة أخرى من علامات زمن الحداثة.

ومن العلامات الأخرى لدخول عصر الحداثة أو ما يصفه وولتر بنجامين» الجديد بالعلاقة مع ما كان دائماً قائماً»، إقامة مؤسسات جديدة مثل سلطات البلدية، وخدمات البريد والتي سبق ذكرها، والساحات العامة، والمدارس الحديثة، والمؤسسات المالية. تقدم لنا مذكرات خليل السكاكيني وجوهرية الكثير من المعلومات عن هذه المؤسسات. يقدم جوهرية قائمة بأسماء مكاتب البريد التي كانت تعمل في فترة ما قبل الحرب، ويقدم السكاكيني ذات المعلومة في مراسلاته مع أصدقائه وعائلته أثناء مكوثه مدة سنة في الولايات المتحدة الأميركية (بين عامي ١٩٠٧ و١٩٠٨). بالإضافة للخدمات البريدية العثمانية فقد أقيمت مكاتب خدمات بريدية في المدينة تابعة لخمس دول هي: روسيا، وفرنسا، وألمانيا، والنمسا، وإيطاليا.

ومع بروز فلسطين ككيان سياسي وإداري منفصل عما يجاوره تحت الانتداب البريطاني كما كان الوضع في الزمن العثماني، تم إنشاء دائرة البريد والتلغراف الحكومية من قبل الحكومة. مثال عن أثر المؤسسات الجديدة نجده في مذكرات المناضل الشيوعي آنذاك نجاتي صدقي، حيث

7 واصف جوهرية، القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية، تحرير سليم تماري وعصام نصار (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية)، ١٦٨.

التقى أثناء خدمته في دائرة البريد عمالاً يهوداً عرفوه على الأفكار الشيوعية والتي سريعا ما أدت إلى انضمامه للحزب الشيوعي الفلسطيني ولسفره إلى موسكو عام ١٩٢١ للدراسة في « جامعة كادحي الشرق الشيوعية الـ KUTV . » وتعتبر تجربة صدقي مؤشراً حقيقياً على وصول أيديولوجيات أممية للمدينة .[8] كما أن تجربته تتحدث عن العلاقات بين سكان القدس الأصليين من العرب والمهاجرين اليهود الجدد . في وصف تجربته كتب صدقي :

> كنا نحتك بالمهاجرين اليهود في هذه الدائرة، إما بحكم العمل وإما بطريق التعارف . . إضافة إلى أننا كنا نرتاد مقهىً صغيراً يقع خلف بنك بركليز اليوم، صاحبه يهودي روسي ضخم الجسم، طويل القامة يرتدي بنطلونا أبيض وقميصا أسود له فتحة وأزرار من جهة كتفه اليسرى، يحلق ر رأسه بالموسى حلاقة بقصد التبريد في الصيف، وله لحية مكورة وشاربان مهذبان على الطريقة الروسية . وكانت تعمل عنده فتاة بولونية جذابة، شعرها أشقر وبشرتها مزيج من اللونين الأبيض والأحمر وعيناها زرقاوان . ففي هذا المقهى الصغير كنا نجتمع عصر كل يوم، ونتعرف إلى رواده الأجانب، فهناك رجل قيصري بلحيته البيضاء يقول أنه كان ربان سفينة روسية، وقد استولى عليها البلاشفة في ميناء أوديسا . . وهناك شاب من أب روسي وأم عربية يعمل في مصلحة البلدية، وفنان رسام مهاجر كان يرسم الناس مقابل قروش معدودات . . . وسيدة أنيقة تتحدث عن أملاكها في أوكرانيا، وفتيان وفتيات من المهاجرين يرطبون حلوقهم بشراب من «السيفون» .[9]

وفكرة أن المقهى يشكل فضاء اجتماعيا عاما مسألة وثيقة الارتباط بتاريخ ظهور المقاهي كأمكنة عامة . فكما تشير سلما اوشكوجاك في دراسة لها حول الفضاء العام والخاص ومقاهي اسطنبول كان المقهى منذ البداية–القرن السادس عشر– محط شبهات من قبل السلطات العثمانية والتي وصل بها الأمر لتحريم القهوة حتى تردع الرجال عن الاختلاط في المقاهي لمناقشة السياسة والتآمر على الدولة . وتشير إلى أن المقاهي كانت دوما ترى من قبل السلطات بأنها أماكن للنميمة وتبادل الفضائح والكلام الفارغ . وبهذا الإطار نجد أن وصف نجاتي صدقي للمقهى كمركز للنقاش السياسي يدعم وجهة النظر هذه، فهو يشير إلى انه مقهى خلف البريد الذي كان يرتاده، كان يشهد « مناقشات في مواضيع شتي تتعلق بالهجرة اليهودية، وبنضال العرب، وعصيان جابوتنسكي، الصهيوني الروسي المتطرف . »

والمقهى بصفته مكانا للنشاط الأدبي والسياسي والفني موضوع متكرر في عدد من المذكرات نجد شذرات حوله في كتابات خليل السكاكيني وواصف جوهرية أيضا . وقد تناوله سليم تماري في دراسة له حول ظهور المقاهي الأدبية في القدس، حيث يقول أن المقاهي كانت أماكن للتفاعل الاجتماعي واللهو؛ فكان الرجال من خلفيات اجتماعية متباينة يلتقون في المقاهي ويتفاعلون ويلعبون الورق ويدخنون النرجيلة ويستمعون لرواة يقصون قصصاً من التراث العربي . وكان مقهى

8 حنا ابو حنا، مذكرات نجاتي صدقي (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية)، ١٣ .
9 حنا ابو حنا، مذكرات نجاتي صدقي (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية) ، ١٩ .

المختار عيسى الطبة الواقع داخل البلدة القديمة بمحاذاة باب الخليل مباشرة أحد تلك المقاهي. وكان خليل السكاكيني أحد روّاده ومنه أطلق مع غيره من الرواد حركة عدمية أطلقوا عليها اسم حزب الصعاليك. وأصبح المقهى بالتالي معروفاً في المدينة باسم مقهى الصعاليك. وخلال الحرب العالمية الأولى أصبحت قراءة الصحف بصوت مرتفع عادة شائعة في المقاهي.

ويعدد واصف جوهرية قائمة أسماء المقاهي التي كانت في القدس في الفترة التي تلت إعادة صياغة الدستور العثماني عام ١٩٠٨. ومن الواضح أن المقاهي شكلت أماكن إضافية للامتزاج السكاني من النواحي الدينية والطبقية بشكل خاص بالقدس بعيدا عن أجواء الطائفية التي سادت مقاهي بيروت مثلا. فصدقي يصف مقهاه المفضل خلف البريد المشار إليه أعلاه مشيرا إلى الجو التعددي النزعة، تماما كجو دائرة البريد والبرق حيث كان يعمل والتي تسمع [فيها] لغات شتى، وترى أزياء تمثل مختلف الشعوب الطوائف . . . كان ترى فتاة يهودية ترتدي سروالا قصيرا وقد عقدت الكوفية العربية على رأسها.»

وكان للمقهى تأثيره على المشهد الثقافي والفني في المدينة. فمقهى الجوهرية الذي كان يمتلكه خليل، شقيق واصف، والواقع في الجزء الجديد من المدينة بالقرب من المجمع الروسي المعروف بالمسكوبية كان يقدم المازّة على الطريقة اللبنانية، كما نعلم أنه كان أول مقهى يقدم العرق التقليدي مع الثلج– المكسر من الألواح والذي وصل حديثا بعد دخول الكهرباء. فبحسب ما يخبرنا الجوهرية «كنت ترى كأس العرق ومن حوله صينية خاصة مجموعة من مختلف الصحون الصغيرة المتناسبة وفيها ألوان المازة الشهية.» وكان المقهى يستضيف فنانين للغناء والعزف ليس فقط من فلسطين بل من لبنان ومصر. وممن زار المقهى كانت الفنانة الشامية– اللبنانية بديعة مصابني.[10]

تبين المذكرات والسير تعدد العلاقات التي كانت قائمة في جوانب الحياة اليومية بين الجماعات الدينية والطائفية المختلفة في المدينة، حيث كان اليهود والمسلمون واليهود يعيشون في وئام في أحياء البلدة القديمة، كأنهم جماعة واحدة. وكانوا يشاركون في المناسبات الدينية لبعضهم البعض، وفقاً لوصف الجوهرية. وبالطبع فإن هذا الشعور بأن الملل الدينية تتعامل على أنها تشكل مجتمعا واحدا، وليس عدة مجتمعات منفصلة ومتناحرة، يظهر المدينة كفضاء هجيني واحد لكن متعدد الأطياف يشكل صورة نادراً ما تظهر في كتابات مؤرخي المدينة البارزين مثل يهوشوه بن أرييه وكارين آرمسترونج وبرنارد وارستين، الذين يرون أن الجماعات الدينية والطائفية في المدينة في صراع دائم، ولا تعمل في وئام. في وصفه لاحتفالات ليالي رمضان في القدس في طفولته في مطلع القرن العشرين كتب جوهرية:

> تكون ليالي رمضان بالقدس ليالي سمر وانس ... [و] كنت وإخواني من سكان محلة السعدية وباب العمود ... نشاهد حفلات ونحضر اجتماعات ونطلع على عوايد المسلمين. [...] وكثيرا ما كنا نشارك بحفلة الذكر في مقام الشيخ ريحان المجاور لدار الجوهرية وننشد معهم الأناشيد الدينية.[11]

10 الجوهرية، مصدر سبق ذكره.
11 الجوهرية، ٧٤.

كما كتب الجوهرية في وصف رحلة (شطحة) شمعون الصديق السنوية، والتي كان ينظمها اليهود في المدينة ويشارك فيها أبناء القدس الآخرون من مسيحيين ومسلمين عرب. وكان موقع الشطحة في منطقة الشيخ جراح شمال البلدة القديمة، وكانت تهدف لزيارة ما يعتقد اليهود أنه قبر شمعون الصديق. ويصف مشاركة عموم المقدسيين في احتفال كرنفال البوريم عند اليهود أيضا مشيرا إلى انه وأصحابه كانوا يقضون « الليالي الطوال ما بينهم [أي اليهود] في القومبانيات [حيث] شفنا فيها العجب. «

بالطبع الهجينية والمرونة (او السلاسة fluidity) الاجتماعية التي نراها هنا لا تعني نفي الانتماء لهوية قومية او دينية او عائلية ولا نفيا للتضامن الطائفي، بل إنها عامل مهم يجدر أخذه بعين الاعتبار عند بحث قضية الهوية. فهذه الأخيرة هي أيضا هجينية وتحتمل التنوع والترابط– مع الحفاظ على الاختلاف – ولو بدرجات متفاوتة وبذلك تدل على المتشابهات في مكنون الهويات والعلاقة ما بين الذات والآخر.

ونجد انعكاسا لهذه السلاسة في العلاقات ما بين الجماعات الدينية والطائفية المختلفة في الممارسات التربوية الجديدة في المدينة، وخصوصا تلك التي ادخلها المربى خليل السكاكيني في مدرسته الدستورية، وهي مدرسة أنشأها هو وعلي جار الله وافتيم مشبك وجميل الخالدي بعيد ثورة عام ١٩٠٨ الدستورية العثمانية. قدمت المدرسة تعليماً خالياً من العقاب الجسدي الذي كان منتشراً في المدارس الإرسالية في المدينة في تلك الحقبة. وفي ديوان مسجل يوم الأحد الموافق الأول من كانون الثاني عام ١٩١١، كتب السكاكيني ما يلي:

> لقد مضى عام ونصف على تأسيس مدرستي «الدستورية»، وقد اشترك معي في تأسيسها علي افندي جارالله وجميل افندي الخالدي وافتيم افندي مشبك. تمتاز «الدستورية» بمزايا عديدة [منها أنها] جمعت بين التلاميذ على اختلاف المذاهب والنحل، هذه أول مرة في تاريخ بلادنا اجتمع أبناء المذاهب المختلفة في مدرسة واحدة على مقاعد واحدة دون تعرض لمذاهبهم الدينية.
> المبدأ الذي تقوم عليه المدرسة إعزاز التلميذ لا إذلاله، تكبير نفسه لا تصغيرها، إنماء عواطفه وميوله لا تهذيبها ومحاربتها او إهمالها، إطلاق حريته لا تقييدها.[12]

تلقى واصف جوهرية وأخوه توفيق تعليمهما في المدرسة الدستورية بعدما أخرجهما والدهما من المدرسة اللوثرية الألمانية (مدرسة الدباغة) بسبب اعتداء أحد المعلمين على واصف. وصف جوهرية التعليم الذي تلقاه في المدرسة الجديدة، حيث ذكر أنه تعلم قواعد اللغة العربية ودرس اللغات التركية والانكليزية والفرنسية كما ودرس قراء ة القرآن – مع العلم أنه مسيحي.

كان لدخول الدولة العثمانية الحرب العظمى عام ١٩١٤ تأثير كبير على القدس (وبلاد الشام بشكل عام)، حيث تم إغلاق البعثات الدبلوماسية والمدارس الإرسالية التي كانت تابعة للأعداء

12 خليل سكاكيني، يوميات خليل السكاكيني، الكتانب الثاني، اكرم مسلم، محرر (القدس: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٤) ٣٤٧.

البريطانيين والفرنسيين والروس، والحرب عكست نفسها على السياحة والحج، حيث سجلت هذه أسوأ أحوالها في تلك الفترة. وكان التراجع الاقتصادي لا يزال في بداياته، وازدادت الأحوال سوءاً في السنوات التالية من الحرب. تظهر الصور الفوتوغرافية التي التقطت في تلك الفترة شنق أعداد من الوطنيين العرب الذين لم يؤيدوا الحرب، والذين رفضوا التجنيد في صفوف الجيش العثماني.

توضح مذكرات جندي مقدسي شاب خدم في الإدارة العسكرية للمدينة أثناء الحرب اسمه إحسان الترجمان، روح التضامن الذاتي او الداخلي من جانب أهل القدس، وتعاطف بعضهم مع حكامهم العثمانيين في زمن المجاعة- بسبب الطوق البحري البريطاني وفرض الضرائب الباهظة وهجمات الجراد- التي أدت إلى نقص حاد في المواد الغذائية، ما أثر بشكل جدي على أهل المدينة.

تصف يوميات إحسان الترجمان اثر الجراد على المدينة حيث كتب الترجمان في ١٩١٥\٥\٣١ ما يلي:

> كثر الجراد في هذه الأيام حتى وصل داخل البلدة [القديمة]. فوصل باب الخليل ومن الجهة الثانية وصل باب المغاربة حتى بيوت أبو السعود. وإذا تهاونت الحكومة في هذا الأمر فإننا سنموت جوعا في هذا العام.
> من اليوم والبارحة ومن قبل بضعة أيام ارتفعت أسعار الخضار حتى وصل [سعر] رطل الخيار [سبعة ونصف غروش] ويقال إننا بعد أيام لن نجد شيئا حتى نأكله.[13]

واصف جوهرية أيضا وثق أثر المجاعة على المدينة، لكن على طريقته الخاصة، حيث يصف كيف أثرت على مدخني الحشيش في المدينة، مشيرا إلى أن تدخين هذا المخدر يفتح الشهية ويدفع بمدخنه إلى أكل الحلويات، والتي لم تكن متوفرة آنذاك بسبب المجاعة. وهو مما دفع بالحشاشين إلى استهلاك ما تيسر لهم من التمر كبديل عن السكاكر.[14]

وقبل أقل من عام على انتهاء الحرب استسلمت المدينة للقوات البريطانية، وكان ذلك في التاسع من كانون الاول عام ١٩١٧، وجاء في مذكرة الاستسلام، التي تلاها رئيس بلدية المدينة حسين الحسيني، أن السلطات والسكان كانوا يرغبون في تجنب الدمار الذي كان سيلحق بالأماكن المقدسة في المدينة في حال تصدوا للقوات البريطانية ودافعوا عن المدينة.

واصف جوهرية بدوره وصف تلك اللحظات ودون نص الرسالة في دفتره، وحفظ صورة لعملية تسليم المدينة واصفا الأحداث والأشخاص في الصورة بالتفاصيل. وشكل دخول الجنرال اللنبي للمدينة بتاريخ ١٩١٧\١٢\١١ نهاية لأربعة قرون من الحكم العثماني.[15]

تظهر الصور الخاصة بتلك الحقبة الزمنية القدس العثمانية كمدينة مفتوحة للجميع داخل الإمبراطورية وخارجها. تبين هذه المصادر كيف أثرت الحداثة والتغيرات الأخرى على الحياة

13 سليم تماري، عام الجراد: يوميات جندي م،قدسي عثماني (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٨) ٢٢٦.
14 الجوهرية، مصدر سبق ذكره، ٢٣١.
15 الجوهرية، ٢٥٤.

اليومية في المدينة. كما تعكس الصور علاقة المقدسيين بعضهم ببعض وبمدينتهم، وتبين كيف أثرت الحداثة على الحياة اليومية للناس. كما تقدم لنا صورة عن علاقة المقدسيين بعضهم ببعض وبمدينتهم، فهي تقدم كمدينة لجميع المواطنين بغض النظر عن انتماءاتهم، وليس كمجتمع منقسم متناحر. وتبين التحول الذي طرأ على المدينة كحصيلة ثانوية للأحداث والتطورات المحلية، أي التغيرات الإدارية والاجتماعية– الاقتصادية في المدينة والإمبراطورية العثمانية عموماً.

وبما أن هذه التغيرات لم تؤت ثمارها على الفور، تم عادة تجاهلها من قبل الحكام اللاحقين. وبالتالي نلاحظ أن الحكام البريطانيين والأردنيين والإسرائيليين تناوبوا اعتبار تحديث المدينة من منجزاتهم وليس نتاج تطور من داخل المدينة. وبالرجوع إلى جذور التغير والتنمية في العهد العثماني وإلى أشخاص وأحداث وقعت في المدينة، فإن هذا يمكننا من إعادة النظر في مسألة التفويض الخاصة بعملية التحديث.